مَوهِبة مِنْ بَين الرُكام

كانت هذه قصة يوسف الذي عاش وتَرعّرع في أكناف جدته، بَعد وفاة أبواه اللذان لقيا حَتفهما أثناء الحَرب وَالقصف على غزة، ومِنْ هُنا نَبّدأ بِإذن الله.

يوسُف طفل في الثامِنة مِنْ عُمره، كان مُصاب بِداء التَوّحُد، فَكان كُلما أراد قَول شيء حاول التعّبير عنه من خِلال موهبته في الرسم.

فكانت جدته تَدور به من مشفى لآخر ومِن طبيب إلى طبيب لتلقّي العلاج لكن لم يجدي هذا نفعًا.

بعد فترة وجيزة اتصل بِجدة يوسف أحد الأطباء من خارج البلاد بعد علمه بحالة يوسف عن طريق بعض الأصدقاء وقال لها: سنُرسِل لكما بطاقتيّ دعوة لحضور مهرجان عالمي في كاليفورنيا، سيحضر هذا المهرجان رابطة مِنْ أفضل الأطباء حول العالم، وقَدّ أخبرتهم عن حال يوسف، ستجِدين عندهم العِلاج إنّ شاء الله تعالى، إنهم ينتظروكما في المهرجان بعد اسبوعين فلا تتأخرا.

فَرِحَتْ الجدة كثيرًا بِهذا الخبر وَقد لمعت عيناها مِنْ البهجة والسرور لأنها وأخيرًا وبَعد طول انتظار سترى حَفيدها

الوحيد وَلِأول مَرّة كَباقي الأطفال يلعب، يركُض، يأكُل وَيَنام وَهي مُطمئنة أنه بِخير، فَسارعت بترتيب أغراضها وأغراض يوسف للسفر.

ها قدّ جاء اليوم المُنتَظَر حيث سيغادر يوسف وجدّته مُتوجهيْن إلى القاهِرة عَنْ طَريق مَعبَر رَفَح وذلِك بَعد التَنْسيق وَحجز دَور على المَعبر مِنْ أجِل اجتيازه ليَتَسنى لهُما الوصول إلى مَطار القاهرة والسَفر بِالطائرة المتجهة إلى كاليفورنيا.

وقد تجدد القصف وقت مغادرتهما لغزة، وعادت صواريخ الاحتِلال وقَذائفه تتَساقط على غزة وكأنها أمطار مُنهمِرة حيث استشهد الكثيرين وأُصيب آخرون وفُقِد مَنْ فُقِد تَحت الأنقاض وتَحت الرُكام، وكانت سيارات الإسعاف تنقُل الشُهداء والمُصابين والجَرحى الى المشافي، وكانت أصوات النِساء تَتعالى فَوق بعضِها، هذه تَبحث عن طِفلها، وتلك تبحث عن زوجها، وَهذا يبحث عن أباه المُسِن، وَكُلًا يَبحث أحبابه، أصبَحت غزة دمارًا قاتلًا، لَمْ يَبقى حَجرًا على حَجر.

هُنا أطفال غزة الذين يَتمنون العَيش بِكرامة وحُرية، الذين يَتمنون العَيش كَباقي أطفال هذا العالَم فهّل هَذا كَثيرٌ عَليهم؟ أم أنه صَعْب على الحُكّام تَحقيقه؟؟

لَيسَ هذا وَحَسب بل أن الكِبار يتمنون العَيش بِحرية قَبْل الصِغار ويَتوقون إليها.

وَشاء القَدر أن يَستطيع يوسف وجدّته مِنْ الوصول الى المَعبر واجتيازه الى القاهرة لتكملة الرِحلة المَصيرية، ووصلا إلى كاليفورنيا وهناك قابلا لجنة الأطباء وتلقى يوسف العلاجات اللازمة وبقدرة الله تماثل للشفاء من المرض وقرّر وَجدته العودة إلى أرض الوَطن حَيثُ الدفئ والحَنين والشَوق رُغم صُعوبة العَيش فيه إلا أن الحَنين إلى الوَطن يَغلِب الراحة في بِلاد الغُربة لأن الوَطن يَسكُن الوجدان والضَمير، وكما قال الشاعر أحمَد شوقي: "وطني إذا شُغِلتُ بالخُلد عَنه نازَعتني إليه بالخُلد نَفسي".

وأخيرًا وَصل يوسف وَجدته إلى أرض الوَطن بَعد رِحلة عِلاج طَويلة، فَتوجها إلى مَنزِلهما وَهُنا كانَت المُفاجأة أو الكارِثة بِصورة أدق حَيث وَجدا المَنزِل قَدْ أصبح كومة مِنْ الحِجارة بَعد إصابته بِصواريخ الاحتلال مثل الكثير مِنْ مَنازِل غزة، وهذا العَمَل لَيس غَريبًا على مُحتَلٍ لَعين وَغدّار وَليس له أمان ولا ميثاق ولا يَربطه سَلام ولا كَلام، وَهُنا تذَكّر يوسف أبواه الحَبيبان، فَكّلَمَ نَفسهُ قائِلًا: يا والداي لَن تَذهب دِمائكم هَدرًا..أعِدُكُم.

وَعِندما رأت جدّة يوسف مَنظر مَنزِلها وهو مُدَمّر أصابتها وَخزَة في القَلب مِما جَعَلَها تَغيب عَن الوعي، فَتَمّ نَقلها إلى المستشفى بسرعة، وأصبَحَ خَوف يوسف عَليها أكبر من كل شيء، خاف أن يفقدها هي أيضا وَبِهذا لن يَبقى له أي أحد!..

خَرج أحد الأطِباء مِنْ غُرفة الجدة والحُزن يَعلو وَجنتيه قالَ ليوسف: كانَت كبيرة ولَم تتحمل الجَلطة، إنّا للّه وإنّا إليه راجِعون، لَكِنها قبل وفاتها بِلحظات أوصتني لَكَ وَصيّة وهي أن لا تيأس فالطريق أمامك طَويل لا تَستَسلِم.

خاطب يوسف نفسه بِحُزن شديد وَقال: أين ذهبتِ وتَركتِني يا جَدتي؟ فَقد كُنتِ كُل حياتي فَكيف لي أن أعيش الحياة بِدونكِ؟

مَسَحَ الدَمعة وقال: لَكنّي سأعمَل بِوَصيتك الأخيرة لَن أيأس وَسأُكمِل ألطريق لأني أعلم ما أُريد، وَسأصبح يَوما ما أُريد.

تَبَرع أحد الأصدِقاء لِيوسف بِبيت صَغير بَعد أن رأى حاله العَسِرة.

ابتدأ يوسف بِتَطوير مَوهبته في الرَسم التي كانت إبداع في صِغره فَكيف الآن؟ دَخَل دورات في الرسِم، فألفَت إبداعه انتباه مُدَرّبه الذي يُدعى أحمَد، وَبَعد أن علِمَ بِحال يوسف

قرّر أن يَتَخذه وَلدًا لأنه عَقيم، وَسَيجعَل مِنْ يوسف فنّانًا رائعًا لا يَهابُ شيئًا.

مَرّت الأيام وَمَرّت الليالي وَإذ بِالسيّد أحمد يقول لِيوسف: هيّا ارتَدي مَلابِسك بِسرعة لأنني جهّزتُ لَك مُفاجئة كَبيرة سَتَنال إعجابَك بالتأكيد.

استَغرَب يوسف مِنْ خطْب أحمد فَسأل نَفسه: ما الذي سيقدمه لي أكثر مِنْ أنه جَعلني رسامًا لا يهاب الصِعاب؟!

وَعِندما وَصلا إلى المَكان المُحّدد دُهِش يوسف بِالمَنظر الذي رآه، إنه حقًّا مَنظر رائع، لَقد كان متحف لِعَرض الرسومات وَتَمَّت تَسميته بِ "مَتحَف يوسف للفن" نسبةً إلى اسمه، عُرِضت بِه جميع لَوحات وَرُسومات يوسف، فَتاق يوسف لِجَدّته وتَمّنى لو أنها معه في هذه اللحظات الجَميلة.

قَرّر يوسف أن يرسم ملامِح جَدّته التي يَتَذكَرها لِيعرِض اللوحة في المَتحَف، وَعِندَما انتهى مِنْ رَسمِها ذَهَب إلى المتحف ليعرضها بِه، وَلكِن في الطريق حَصل مَعه شيء مَنعه مِنْ الوصول إلى هُناك، على الحدود تقريبا وَجَد ثَلاثة مِنْ جُنود الإحتِلال يَضرِبون رَجُلًا عَجوزًا لا يَقدِر عَلى الحَركة.

ألقى يوسف اللوحة جانِبا وَهّب لِمساعدة الرجُل، أبعدهم عنه وَبِسرعة مِثل الريح تناول سِلاحا مِن أحدهم وبَدأ

بإطلاق النار عَليهم، قَتلَ اثنين منهم وقام الثالث بإطلاق الرصاص عليه فاخترقت إحدى الرصاصات جَسده وَدخَلت وسط قلبه.

وبِهذا انتهت رحلة الفنّان الرائِع وَبَدأت رِحلة الشهيد البَطَل، سارِع يوسف بالالتحاق بِمَوكِب الشُهداء الذي التحق به أباه وَأمه مِنْ قَبل.

قال تَعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذين قُتِلوا فِي سَبيلِ اللهِ أمواتًا بَلْ أَحياءٌ عِندَ رَبِهم يُرزَقُونَ).

وَتَمّ تَغيير اسم المتحف مِنْ قِبَل السَيّد أحمَد مِنْ "مَتحَف يوسف للفن" إلى "مَتحَف الشهيد يوسف للفن".

وهذا دأب الشعب الفلسطيني الذي سيبقى مجاهدًا، ثائرًا ولن ينسى الأسرى والشهداء.

سنابل محمد سمير الجعبة

2020/8/24

تم بحمد الله